السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريتو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل العاشر

في معادن الذهب

وكان الهواء ثقيلا والجوّ معتماً وجرس كنيسة القديس بولس يدق دقة النزع التي كان صوتها يتّصل الى كلّ الاحياء المجاورة ناشراً عليها راية الغمّ والاسف. وكان المرض قد اشتدّ على فاضل في تلك الساعة وخيل انّهُ دخل في النزع. اما نسيب فكان قائماً حذاء سرير المريض ينتظر الدقيقة الاخيرة من حياتهِ حتى يُغمض عينيهِ. وكانت ميس جني تتردد الى حجرة المريض وهي تطأ الارض كرهاً لان الحادث الذي اصاب فاضلاً أنساها ما كانت قد نطقت بهِ من الكلام الجافي لاوّل مرّة. اما فاضل الذي كان غائباً عن الحسّ وغير مُدرك شيئاً مما هو جارٍ حولهُ فكان يغرغر غرغرة الموت وكلّما تنفّس مرّة يعلو صدرهُ علوّاً مفرطاً ثم ينخفض مصحوباً بحشرجة النزع فيتوجّع لهُ القلب الصخري. وكان رقّاص الساعة يدقّ في خلال السكوت كأنهُ يقيس كلّ ثانية من تلك الحياة التي كانت على وشك الانطفاء. وكانت الساعات تنقضي واحدة بعد أخرى مسمعةً دقّاتها المحزنة في حجرة المحتضر

ثم اقبل الليل بمخاوفهِ وظلماتهِ فانحنى رأس فاضل واطبق فمهُ واخذهُ السبات. وظنّ الحاضرون انّهُ لا يفيق فيرى صباح اليوم التالي لان كلّ شيء كان يدلّ على قرب قضاء نحبهِ

ولمّا لاح الصباح وفد الطبيب باكراً بينما كانت الطيور تغرّد في الاشجار ووقف بعربتهِ امام دار نسيب. ثم نزل وصعد السُّلّم دون ان يسأل احداً وفي يقينهِ انّهُ يُشاهد فاضلاً جثّةً باردةً فيوقّع العلم بوفاتهِ ثم يمضي الى معالجة من لديهِ من المرضى ولا يعود يفتكر في هذا السوري الذي القتهُ التقادير في ارض الغربة

بيد انّهُ ما فتح حجرة فاضل والقى ببصرهِ على السرير حتى شاهد من كان قد تركهُ في حالة النزع يبتسم لهُ. فتعجّب من هذا التغيّر السريع الذي لم يكن ليتوقّعهُ. وكان

هذا التحسُّن في حالة فاضل عرض لهُ اثناء الليل فان قوَّة جسمهِ تغلَّبت على الداء. ونحو الساعة الحادية عشرة مساء وقد رقادًا هادئًا ثم استيقظ في الصباح وقد تجدَّدت قوَّتهُ ونجا من الخطر المحدق بحياتهِ

وكانت مدَّة نقاهتهِ من المرض اقصر مما كان يُظنّ وقد ساعدتهُ على ذلك بنيتهُ القويَّة وما مضى زمن يسير حتى خرج فاضل في يوم صحا جوّهُ وصفا اديمهُ يتنشَّق الهواء النقي مع كلٍ من الستر نسيب وقرينتهِ في الجنينة المحاذية لدارهما. وكان النسيم وقتئذٍ يتلاعب بالازهار واغصان الشجر ويُسمع صوت خرير الماء في الحوض بينما كانت ميس جني تترنَّم ببعض الاناشيد المطربة كأنها تريد ان تحو بذلك سابق مساوئها

ولمَّا عادت العافية الى فاضل همَّ بالسفر الى حيث تستدعيهِ اشغال نسيب في معادن كاليفورنية. وكان على قدر تقدُّمهِ في الصحَّة يستثقل البقاء في ذاك البيت الذي عومل فيهِ بكلّ اعزاز واكرام وشفقة طول وقت مرضهِ فضلًا عن انَّهُ كان يودّ ان يصير غنيًّا ويحصِّل في اقرب وقت ثروة كثروة نسيب

فلمَّا كان يوم الثلثاء خامس عشر كانون الثاني نحو الساعة الثامنة صباحًا سار كل من نسيب وفاضل مسرعين الى الميناء يتحدَّثان بمهمَّات امورهما التجاريَّة. وكانت قد دارت سوق الاعمال على الرصيف واخذ العمَّال في رفع البضائع من البحر واتزال غيرها الى السفن. وكانت قرقعة الصناديق وصياح العتَّة وصفير الموكلين بهم تملأ الفضاء وتُصمّ الآذان. أمَّا المذكوران فانسلَّا في وسط الزحام وركبا باخرة اسمها « براغدون » وما اقاما على ظهرها برهة يشاهدان مدينة سان فرنسيسكو حتى اقلعت بهما تشقّ العباب

وكان سفرهما قصيرًا لان الباخرة ما كادت تدور حول خليج سان فرنسيسكو حتى انتهت الى خليج سان بابلو الذي يُشرف عليهِ الجبل المعروف بجبل الشيطان ولهذا الجبل قمَّة مستديرة معمَّمة دائمًا بالثلوج. فنزل كلاهما في مدينة « ستوكتون » الواقعة بقرب مصبّ نهري سان يواكيم وريو سكرامنتو

وستوكتون هذه محطّ رحال المعدّنين لقرب وقوعها من مناجم الذهب ولذلك قد تكاثرت فيها المطاعم والحانات والفنادق يأوي اليها الغرباء والاجانب

وفي جوار المدينة مستشفى رحب الافناء يُمرَّض بهِ المصابون بشعورهم. والحقُّ يُقال انَّ داء الجنون آفةٌ ضربت اطنابها على اهل هذه الاصقاع فاذاقت المئين منهم امرّ

العذاب. وليس جنونهم مسًّا خفيفًا او ألمًا في عقلهم بل مرضًا عقامًا يفورون بسببه ويهيجون فلا يقوى احد على ضبطهم ولولا شعار يلبسونهُ كرهًا يمنع ايديهم عن الحركة لما استطاع احد ان يقوم بازائهم

اما سبب توارد هذا الداء على اهل المدينة فانما هو تقلُّب الاهواء عليهم فانَّ اكثر من يقصدون هذه المناجم يعيشون عيشة البهائم لا يردعهم رادع عن شهواتهم القبيحة فيفقدون بعد قليل من الزمن كلَّ شعائر الدين والادب ويتجاوزون كلَّ طور في سبيل الشرّ. فانهم بعد ان عاشوا سابقًا في الفقر المدقع لا يحسنون التصرُّف بالذهب الذي يجمعونهُ بشغلهم في المعادن بل يعيشون بمالهم ويتلفونهُ في اللعب والملاهي والعيشة الخلاعيَّة ولاسيما في شرب المسكرات فيصبحون في حالةٍ اسوإ من حالتهم الاولى. وتراهم لا يرتاحون الى مساكنة اهلهم وقد ضعفت فيهم رغبة الشغل او خارت عنهُ قواهم. ولمَّا لم يجدوا بابًا للتملُّص من هذه الدواهي يستولي عليهم اليأس ويستسلمون للقنوط. وكثيرًا ما يلتجئون الى الانتحار فرارًا من هذه البلايا. وقسمٌ منهم تنهكهم الامراض العصبيَّة وتُطبق عليهم الادواء الشديدة كالتقرُّس والاستسقاء فيُحمَلون الى المستشفيات ويموتون فيها بعيدًا عن الاهل والاحباب

الَّا انَّ هذه الاسقام لا تُعدُّ في جانب الداء الذي مرَّ ذكرهُ اعني فَقْد العقل. كيف لا وهو السَّقم يحطُّ برتبة الانسان وينزع عنهُ ما يفرزهُ عن البهائم او قُلْ بالاحرى انهُ يُضحي ادنى من الحيوان شأنًا وأحطَّ قدرًا لانَّ للحيوان وهمًا وذكاء طبيعيًّا يتكلان بهِ عمَّا يضرُّهُ ويصرفان همَّتهُ الى منافع ذاتهِ. والمصاب بالجنون لا يقوى على شيء من ذلك فهو اشبهُ بوحشٍ ضارٍ لا يردُّهُ عن كيدهِ الَّا القُوَّة الجبريَّة

وكان المستشفى المطلّ على مدينة ستوكتن من هذا الصِّنف. فعاينهُ فاضل وهو لم يدرِ انهُ مأوى لاولئك البائسين. وانَّ فيهِ بعضًا من السوريين مواطنيهِ لا سنَدَ لهم ولا معين كانوا قدموا مثلهُ هذه البلاد كلفًا بالذهب فخسروا مالهم ودينهم وشرفهم واضحى موتهم خيرًا من حياتهم

وكان لا يخالج فكر فاضل في ذاك الحين الَّا الغنى القريب والحصول على ثروةٍ واسعة تجديهِ يومًا هناء العيش في وطنهِ

ففي صباح ذلك النهار وكب المستر نسيب وفاضل عَرَبةً من العَرَبات المختصَّة

بشركة المناجم. وكان مسيرها في وسط سهول وبطائح مخصبة وحدائق نضرة فيها ضروب من الشجر الذي خصت به قارة اميركة دون غيرها. وفي وسط هذه الجنانين مصانع وقصور لاعيان البلد كان فاضل يسرح فيها ابصارهُ ويتمنّى لنفسهِ تظيرها

وكانت عربتها تواجه في سيرها عجلات كبرى كقطارات السكك الحديدية يمثلها ثمانية او عشرة ازواج من البغال. وهذه العجلات تنقل من ستوكتن الى مناجم الذهب كلّ ما يحتاج اليه المعدنون من اللوازم كأدوات الشغل والبارود والمآكل. وهذه العجلات ربّما حملت اثقالاً ضخمة تبلغ نحو الف كيلوغرام

ولمّا صار وقت الظهر نزل المسافران في محطّة هنالك للغداء. فنفضا ثيابهما من غبرة الطريق المتكاثفة واغتسلا ثم دخلا المطعم. فلم يمضِ عليهما ربع الساعة حتى اشار اليهما الحوذيّ انّهُ حان الوقت لاستئناف السير. فاجاب المستر نسيب الى سؤالهِ وهو يعلم انّ الاميركيين يعدّون الوقت كالفضّة لا يحبّون نقد شيء منهُ

فواصلا اذن سيرهما الحثيث وأويا مساء ذلك النهار الى فندق يُدعى كريمين هوس (Cremean House). ولم يزالا يسيران على هذا النمط مدّة ثلاثة أيام حتى بلغا وادي مكس ولس كريكس (Mac Wells Creeks) وهناك «بلاد الذهب»

وكان وصول نسيب وفاضل الى تلك الانحاء قبل غروب الشمس بقليل فنزلا في مأوًى هنالك واستأجرا لهما فيهِ مكاناً. وبعد هنيهة من الراحة خرج كلاهما لينظرا المعدنين. فلمّا قربا منهم كانت الشمس أزفت الأفول فرمت باشعّتها الاخيرة على تلك التربة المزوجة بشذرات الذهب فما كاد فاضل يراها تتلألأ حتى اسرع الى بعض العملة وطلب منهُ حفنة فعمل فيها منظرهُ عملاً انساهُ كلّ اتعابهِ السابقة ومحنهِ الماضية كأنهُ بلغ ارض الميعاد لم يبقَ لهُ سوى التنعّم بارفاق الحياة وبذخ العيش (ستأتي البقيّة)

شذرات

الغرباء في فرنسة بلغ في العام المنصرم عدد الغرباء في فرنسة ١,١٣٠,٢٠٠ أُحصيَ منهم ٤٦٥,٨٧٠ بلجكيًا و ٢٨٦,٠٤٢ المانيًا. امّا الفرنسيّون الذين يعيشون خارج وطنهم فلا يتجاوز عددهم ٥١٧,٠٠٠ واهل فرنسة اقلّ الناس